

أشكال التعدد اللغوي وأثرها على التمثير البوليفوني للخطاب الروائي المعاصر

Forms of linguistic multiplicity and their impact on the polyphonic appearance of novelistic discourse

طاهري بلقاسم

المركز الجامعي نور البشير، البيض، الجزائر

tahribel@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/03/30

تاريخ القبول: 2024/02/09

تاريخ الإرسال: 2023/12/08

ملخص:

لا شك أنّ الطاقة الاستيعابية والطبيعة الانفتاحية للخطاب الروائي الحديث جعلته جنسا مختلفا من حيث المادة اللغوية المشكلة له، حيث بات فضاءً يستضيف جميع اللغات واللهجات عبر توظيف مختلف الأشكال اللغوية لمهندس السارد من خلالها معماره اللغوي المتفرد والقائم على فسيفساء لغوية ترفض اقضاء أي شكل من أشكال اللغة، كما تتيح لجميع الأصوات التعبير عن ذاتها مشكلة بذلك منبرا حرا يسمح لجميع فئات المجتمع أن تُسمع صوتها من خلاله، وأن تعبر عن وعيها للعالم من حولها بأي لغة تستطيعها، لذلك كان الخطاب الروائي معرضا لطيفا لجميع لغات المجتمع ولهجاته، فصيحها وهجيتها وحتى العامي منها. إنها صخب صوتي منتظم، شبيه بانتظام أصوات الموسيقى على حد وصف باختين، يضطلع الكاتب/السارد فيه بدور تنضيد هذه اللغات الحاضرة ضمن هذا الخطاب، بعيدا عن أي تدخل منه، فصوته ورؤيته لا تعدو أن تكون مجرد صوت ورؤية وحيدين ضمن مجموع الأصوات والرؤى المعبر عنها، فلا وجود لهيمنتها داخل المتخيل السردية، بفضل التعدد اللغوي الذي يمنح لهذه الأصوات مكانها الطبيعي من خلال لغاتها ولهجاتها ومختلف طرائق التعبير المتولدة عن الممارسات المهنية وغيرها، مما يتيح للحقيقة أن تعرض على اختلاف تمظهراتها بعيدا عن التهذيب والتنقيح الذي غالبا ما يعمد السرد إليه، فيغيّب كثيرا من الدلالات الكاشفة عن مضمون الوعي لكل شخصية. فعرض الحقائق عارية من أي تعميم يستهوي القراء، إذ يجد كل منهم ما يلي ميولاته، أو من يعبر عن رؤيته على اعتبار إمكانية وجود ما يمثل اتجاهه ضمن بساط السرد. لذلك سيحاول البحث الكشف عن أهم التمظهرات والأشكال اللغوية المشكلة للتعدد اللغوي ضمن البساط اللغوي للخطاب الروائي بوصفها قرائن مادية دالة على تعدد الأصوات ضمنها، أي الرؤى والأيدولوجيات.

الكلمات المفتاحية: (التعدد اللغوي، البوليفونية، الصوت السردية، الرواية، الأيدولوجيا)

ABSTRACT:

The absorptive capacity and open nature of contemporary novelistic discourse have undeniably transformed it into a distinct genre characterized by diverse linguistic elements. It serves as a space that accommodates a multitude of languages and dialects, achieved through the utilization of various linguistic forms manipulated by the narrator. The novel's unique language structure is like a mosaic that includes all forms of language. It allows diverse voices to be heard, creating a free platform for all segments of society to express their awareness in any language. In essence, the novel becomes an exhibition of society's languages and dialects, including eloquent, hybrid, and colloquial forms. It produces a regular sound, similar to the rhythmic sounds of music as described by Bakhtin. The writer or narrator takes on the role of organizing these languages within the discourse, without imposing their interference. Their voice and vision become just one among many in the totality of expressed voices and visions. The narrative imagination doesn't have dominance, thanks to multilingualism. This diversity provides each voice its natural place through languages, dialects, professional terms, etc. This approach allows the truth to be presented in various forms, avoiding the excessive refinement often seen in narration. It ensures that many revealing connotations of each personality's awareness are not overlooked. Presenting facts without obfuscation appeals to readers, as they can find something that aligns with their inclinations or someone expressing their vision. The research aims to uncover the significant linguistic manifestations and forms within the linguistic context of novelistic discourse. These serve as material evidence indicating the multiplicity of voices, visions, and ideologies present within them.

Keywords: *Multilingualism, polyphony, narrative, voice, novel, ideology.*

1. مقدمة:

لطالما كان الاعتناء باللغة في المجال الإبداعي الشغل الشاغل للمبدع، لا باعتبارها وسيلة فقط، وإنما باعتبارها غاية كذلك، لذلك لا عجب أن نلفي كثيرا من هذه النتاجات تحتفي باللغة وفق ما تقتضيه طبيعة الجنس الأدبي الذي تنتضد تحته، فاللغة الشعر مثلا تقتضي الجمع بين جمال العبارة وجلال الفكرة، غير عابئة بقواعد اللغة من خلال القفز فوق أسوارها بحثا عن الطريقة الأمثل لإيصال دلالاتها، في حين تنحو أجناس أخرى كالرواية منحنى آخر حين تستنجد في إيصال ملفوظها بجميع ما تتيحه اللغة من إمكانات ومستويات ولهجات وإيماءات ...، إنها أي الرواية معسكر لجميع الأساليب وطرق التعبير تتمازج فيه مستويات اللغة على اختلافها، حيث نجد فيها اللغة الانزياحية الراقية، كما نجد اللغة المباشرة البسيطة، وصولا إلى مختلف اللهجات انتهاء بالغات الأجنبية وهلم جرا.

إنّ هذا التشكيل اللغوي المتعدد هو ما يعطي للرواية هويتها اللغوية التي باتت جزءا أساسيا من أجزاء قالب السرد الحديث، الذي يؤكد على مسألة الإيهام بالواقعية اللغوية خصوصا ضمن منطوق الشخصية الروائية، كما بات مظهرا من مظاهر الديمقراطية اللغوية التي توهم القارئ باستقلال الذوات الفاعلة ضمن المسرح السرد عن خيوط الكاتب التي طالما قيدت حركتها في ما يسمى بالرواية التقليدية، فتتعدد بذلك أشكال اللغة وتختلف، باعتبارها مظهرا حسيًا لتعدد الرؤى والأيدولوجيات، أو ما يسمى بالأصوات السردية ضمن مفهوم البوليفونية التي جاء بها باختين.

من هذا المنطلق سيحاول البحث الكشف عن أهم التظاهرات والأشكال اللغوية المشكلة للتعدد اللغوي ضمن البساط اللغوي للخطاب الروائي باعتبارها قرائن لغوية يتأكد من خلالها طبيعة النصوص السردية من حيث اعتمادها على الصوت الواحد ممثلا في صوت السارد، أو احتفائها بأصوات عدّة لا يجاوز فيها صوت السارد باقي الأصوات.

أشكال التعدد اللغوي وأثرها على التمازج البوليفوني للخطاب الروائي المعاصر

2. التمازجات والأشكال الخاصة بإدخال وبرمجة التعدد اللغوي في الرواية:

لطالما أثار أسلوب الرواية الجدل في أوساط الدارسين في الحقل النقدي، خصوصا في مجال مقارنته بسبب طبيعته المختلفة والمتعددة، ولعل أكثر من حاول توصيفه وتحديد طبيعته المنظر الروسي باختين حيث يقول: "الرواية هي أولا وقبل كل شيء، معسكر لأساليب مختلفة، إنها متعددة الأساليب والألسن والأصوات، ولغتها لغة مركبة تنطوي، في غالب الأحيان، على وحدات لسانية لا متجانسة. ذلك، أنّ أسلوب الرواية هو تجميع لأساليب، ولغة الرواية هي نسق من اللغات." ¹ فالطبيعة الفنية لجنس الرواية القائمة أساسا على هذا التعدد، تضع السارد/الراوي أمام حساسية مفردة في تشكيل معمارها، درءا لأي انحراف قد يجعل من هذا التعدد الذي يفترض أن تشع الرواية به تفردا، فترتد مجموع هذه الأساليب واللغات إليه، فتصبح الرواية مجرد رجع لصداه، ليكون هو نفسه السائل والمجيب، الموالي والمعارض، القامع والمقموع... فيؤاد الصراع ضمنها، وتفقد مظهرها « البوليفوني » ² متحوّلة بذلك إلى رواية « مونولوجية » ³ يهيمن فيها صوت السارد نتيجة لضعف قدرته على التشخيص الفني لمختلف هذه الأساليب، "فبنية الرواية القائمة على التعدد والتنوع تقتضي من الكاتب امتلاك القدرة على التشخيص الأدبي - مقابل ما تسميه الأسلوبية التقليدية بمفهوم الخلق الفني - حيث تتجلى هذه القدرة في مدى تجسيم تلك اللغات كلها، وبشكل متساوي الخطوط في بنية النص، ذلك أن لغة الرواية هي لغة اجتماعية والجنس التعبيري هو شكل ايديولوجي وكل صوت هو نمط من الوعي موضوع تحت أشعة الرواية لاختبار صلابته وقوته." ⁴ ومن هنا يأخذ البحث في مظاهر التعدد اللغوي أهميته، كونه يكشف عن التعدد والتنوع الحاصل في الأساليب واللغات، وبالتالي تعدد أنماط الوعي والرؤى والأيديولوجيات، ثم مدى قدرة المبدع على توزيعها فنيا بما يتناسب ومتطلبات الكتابة الفنية.

وقبل أن نخوض بإمعان في التمازجات والأشكال الخاصة بإدخال وبرمجة التعدد اللغوي في الرواية، نسوق ملاحظتين مهمتين:

"أولا: إنّ هذه الأشكال المتصلة بتنظيم وإدخال التعدد اللغوي على درجة كبيرة من التنوع والتفرع.

ثانيا: إنّ هذه الأشكال مشيّد ومصاغة خلال النّمو التاريخي للجنس الروائي بمختلف مفايراته ونماذجه." ⁵

أي أنّ هذه الأشكال تتباين في ذاتها وفيما بينها وفق وعائها الروائي كما أنّها لا تستقر على حال فهي في تطور مستمر تبعا للتطور التاريخي الحاصل في الجنس الروائي، "ويمكن حصر هذه الأشكال المتصلة بإدخال التعدد اللغوي في الرواية فيما يلي:

أولا: أشكال إنتاج "صورة اللغة"

ثانيا: الحوارات الخالصة

ثالثا: أقوال الشخصيات الروائية.

رابعاً: تنضيد اللّغة إلى أجناس تعبيرية ومهن.⁶

2.1- أشكال إنتاج «صورة اللّغة»:

لقد سبقت الإشارة إلى أن أسلوب الرّواية يشكّل مركزاً لغويّاً لمجموع الأساليب التي يشتمل عليها المتن الرّوائي، علماً أن هذه الأساليب هي نتاج خطابات الإنسان ضمنها، على اختلاف تمظهراته (السارد/الرّوائي/الشّخصية...) لذا وجب أن نضع في الحسبان أثناء التّعامل مع هذه الأساليب الاعتباريات التّالية:

"أولاً: في الرّواية، الشّخصية التي تتكلم وكلامها، هما موضوع تشخيص أدبي، فخطاب الشّخصية ليس مجرد خطاب منقول بطريقة حيادية، بل هو بالذات مشخّص بطريقة فنية، وبواسطة خطاب آخر، فهو يستلزم طرائق شكلية نوعية في الملفوظ وفي التّشخيص الأدبي.

ثانياً: المتكلم أساساً هو فرد اجتماعي ملموس ومحدد اجتماعياً وخطابه لغة اجتماعية، ومن ثمّ، يمكن لخطاب شخصية روائية أن يصبح أحد عوامل تصنيف اللّغة ومدخلاً للتعدد اللّغوي.

ثالثاً: المتكلم في الرّواية هو دائماً وبتدرجات مختلفة، منتج أيديولوجي وكلماته هي دائماً عينة أيديولوجية.⁷

لقد ساق « باختين » هذه الاعتباريات للتأكيد على الصعوبات التي تنطوي عليها الكتابة الرّوائية، أثناء تشخيص اللّغة، وكيفية جعل الشّخصية الرّوائية تتكلم بلسان حالها، باعتبار أن صورة الرّواية - كما يؤكد على ذلك - هي لغة الغير، لذا على الكتابة قبل كل شيء تفجير الوعي اللّغوي للشخوص واكتشاف اللّغات الاجتماعية ومختلف نواياها، وذلك بترك مسافة ما بينها وبين الشّخصية المشخّصة، وتهيئة المناخ المناسب لتفجير الإيديولوجيات وخلق التناقض والصراع في كل المستويات، ومن البديهي أن اللّغات الاجتماعية طرق التعبير المتولدة عن الطبيعة المهنية للشخوص، ومختلف اللهجات وثيقة الصلة بالظروف المحيطة التي أوجدتها، مثلما أنها لا تنفصل عن المظهر غير اللّغوي كطريقة التّعبير، وأسلوب الكلام والنبرة والتّنغيم إلى جانب العناصر غير اللّغوية المساعدة.

إنّ تركيز باختين على منطوق الشخصية ينطلق من احساسه العميق بأن الشخصية الروائية هي أكثر مصادر التنوع والتعدد اللغوي "لذا يتوجب - حسب رأيه - التّركيز في تشخيص كلام الشّخصية على خطابها وأقوالها، وحتى رصد أفعالها وحركاتها المادية والنفسية، إذ الأصل أن يترك لها المجال رحباً للإدلاء بأرائها والتّعبير عن وعيها وأيديولوجياتها، ومن ثم لا يكون التّركيز على صورتها كإنسان وإنّما على صورة اللّغة لديها والتي يمكن من خلالها تشخيص رؤيتها للعالم. وهنا نتساءل عن مفهوم صورة اللّغة وكيف يساهم في إثراء التعدد اللّغوي داخل الرّواية؟"⁸

يعد هذا المفهوم من أهم ما خلص إليه الفكر الباختييني في مجال التعدد اللغوي الذي يمتاز به الجنس الروائي، كما أنّه "من الصعب تحديد جوهره (مفهوم صورة اللّغة) نظراً لما يتسم به من تجريد شديد لذلك أفضل وسيلة لإدراك طبيعة هذا المفهوم، هي الانتقال إلى رصد أشكال تحقيقه، حتى تقرّبنا بصورة أكثر ملموسية من هذا المفهوم، هذه الأشكال يسميها « باختين » بطرائق إبداع صورة اللّغة في الرّواية،"⁹ هذه الصورة

أشكال التعدد اللغوي وأثرها على التمثيز البوليفوني للخطاب الروائي المعاصر

هي ما يُحدث التعددات اللغوية والتنوعات الأسلوبية ضمن نسيج اللغة الروائية العام، حيث يقول باختين: "نستطيع ان نصنف جميع طرائق إبداع صورة اللغة في الرواية في ثلاثة أصناف أساسية:

أولاً: التهجين.

ثانياً: تعالق اللغات القائم على الحوار.

ثالثاً: الحوارات الخالصة.

ولا يمكن فصل هذه الأصناف إلا بطريقة نظرية، لأنها تتشابك باستمرار داخل النسيج الأدبي الفريد للصورة.¹⁰

أولاً: التهجين: L'hybridation

يشكل التهجين أحد مظاهر التعدد اللغوي عند باختين، إذ يعمل على تحديد أساليب حضور ملفوظات سابقة في ملفوظ لاحق، والتهجين كما يقدمه «باختين» هو "مزج قصدي للفتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، أو التقاء وعيين لسانين ينتهي كل منهما إما لحقبة زمنية أو فئة اجتماعية مختلفة عن أولاهما معاً، مما يعني حضور نمطين من الوعي: الوعي المشخص والوعي المشخص،"¹¹ داخل ساحة ذلك الملفوظ وهو نوعان:

أ- تهجين لا إرادي (لا قصدي): وهو ما يقع عادة بين اللغات في كلام الناس اليومي المألوف، دون تقصد بل يدخل في سياق التأثير بين اللهجات واللغات التي تتعايش في حقل اجتماعي واحد، وهذا النوع من التهجين ليس له بعد جمالي إطلاقاً¹². لذا سيتم التركيز على الثاني ضمن هذا البحث

ب- "تهجين إرادي (قصدي): ويتحقق وفق جملة من الاستدعاءات الواعية عبر انتخاب خطابات أو تراكيب معينة بغية إذكاء فضاء دلالي ما. وضمن هذا النوع يندرج التهجين الأدبي، والذي يجده باختين يتحقق أكثر ما يتحقق في نوع أدبي بعينه وهو الرواية التي جاءت نتيجة تفاعل لغوي شديد، جعلها تكون فضاء تلتقي فيه مجموعة من النصوص المتباينة بل والمتناقضة بحيث تصبح بنيتها الأسلوبية العامة متولدة عن تفاعل عدد من الأساليب والخطابات المتباينة.¹³

ثانياً: تعالق اللغات القائم على الحوار:

ويتم ذلك حين تستنجد لغة السرد باللغات أخرى كاللغة التراثية لإيصال دلالاتها، "وتسمى أيضاً «الإضاءة المتبادلة ذات الصيغة الحوارية الداخلية»، وهو دخول لغة الرواية في علائق مع لغات أخرى من خلال إضاءة متبادلة دون أن يؤول الأمر إلى توحيد للفتين داخل ملفوظ واحد كما هو الحال بالنسبة للتهجين، وإنما يقوم على لغة واحدة محينة (actualisée) وملفوظة إلا أنّها مقدمة في ضوء لغة أخرى تظل خارج الملفوظ ولا تتحين. ومن الصيغ التي يوردها باختين لهذا التعالق اللغوي القائم على الحوار:¹⁴

أ- الأسلية: La stylisation

الأسلية فنية يلجأ إليها المبدع ليطبّع أسلوبه بأساليب السابقين فتأخذ لونها، وتصير بصيغة جديدة تحقق جمالية تتمثل في ازدواجية اللغة وتعددها، وذلك من خلال الحديث عن واقع معاصر بأسلوب عصر آخر

"فاللغة المعاصرة تلقي ضوءاً خالصاً على اللغة موضوع الأسلبة، فتستخلص منها بعض العناصر وتترك البعض الآخر في الظل".¹⁵ فمما تفخر به الرواية، هو إمكانية تسخير أساليب الغير، قديمها وحديثها، وعلى اختلاف أجناسها، خدمة لأغراضها الدلالية والفنية والجمالية، بتحاوُر الحاضر مع الماضي، ليتولّد عن ذلك واقع جديد ينقل الأسلوب الروائي إلى واقع أرحب، لذا يعتبر باختين في هذا المجال، "أن صورة اللغة التي تخلقها الأسلبة هي الأكثر صفاءً، والأكثر إنجازاً من حيث التقنية حيث توفر أعلى درجة ممكنة في استيعاب النثر الروائي".¹⁶

ويحددها باختين بأنها أسلبة وعي لساني معاصر، يعتمد معجماً لغوياً ينتمي لوعي آخر، بحيث تكون اللغة الأجنبية هي مادة الكتابة، وهكذا يتم حضور وعين لسانيين في ملفوظ واحد: وعي من شخص (المؤسلب)، وعي من هو موضوع للتشخيص (المؤسلب).

حيث يقول: "إنّ الوعي اللغوي الثاني للمؤسلب ومعاصريه، يعمل بمادة اللغة المؤسلبة، فالمؤسلب لا يتكلم بصورة مباشرة في موضوع ما إلا بهذه اللغة المؤسلبة الغريبة عنه، لكن هذه اللغة المؤسلبة نفسها تُعرض على ضوء الوعي اللغوي المعاصر للمؤسلب، واللغة المعاصرة توفر اضاءة معينة للغة المؤسلبة".¹⁷

"ونظراً للتداخل النظري الدقيق بين مفهومي التهجين والأسلبة نورد الصياغتين التاليتين:

التهجين: لغة مباشرة (أ) من خلال لغة مباشرة (ب) في ملفوظ واحد

الأسلبة: لغة مباشرة (أ) مع/ ومن خلال لغة مباشرة (ب) في ملفوظ واحد"¹⁸

ب- التّنوع: La variation

هي صيغة ثانية من الأسلبة يسميه باختين بالتّنوع حيث، لا يكتفي الوعي المؤسلب، في إضاءته للغة موضوع الأسلبة، باهتماماته، ونواياه فقط، ولكن يعمل على أن يدخل عليها مادته الأجنبية المعاصرة لتصبح الإضاءة مزدوجة (ضمنية/نوايا) و (مباشرة/مادة لغوية)¹⁹

أي أن اللغة التي كانت ضمنية في الأسلبة (اللغة الضمنية المعاصرة)، تشارك مادياً ضمن الملفوظ بعد أن كان مكتفياً في شكله من اللغة التراثية المباشرة.

وخالصة الأمر: أنّ الأسلبة: " لغة تراثية مقدمة في ضوء لغة عصرية، لكن الطابع الغالب على الملفوظ هو لغة التراث من حيث معجمها وحمولتها الفكرية، بينما تظل اللغة المعاصرة تعمل في الخفاء بشكل مضمّر، إلا أننا نستشف تأثيرها من السياق، ونلتقط بذلك الانتقادات السّاخرة المضمّنة في الملفوظ. في حين التّنوع لغة تراثية مقدمة في ضوء لغة عصرية، لكن الطابع الغالب على الملفوظ، هو اللغة المعاصرة من حيث مادتها اللغوية وحمولتها الفكرية، إذ يتم انتقاد لغة التراث بلغة معاصرة مجسدة وحاضرة في الملفوظ، " بغية إضفاء طابع جمالي ودلالي يكسر رتابة اللغة الجاهزة المباشرة، بالخروج عن المؤلف، لاكتشاف عوالم أخرى لم يسبق لها أن اختبرتها وفي ذلك يقول باختين: "إن التّنوع يدخل بحرية مادة للغة " الأجنبية " في التيمات المعاصرة ويجمع العالم المؤسلب بعالم الوعي المعاصر، ويضع موضع الاختبار اللغة المؤسلبة وذلك بإدراجها ضمن مواقف جديدة ومحالة بالنسبة لها".²¹

ثالثاً: الحوارات الخالصة:

أشكال التعدد اللغوي وأثرها على التمثيل البوليفوني للخطاب الروائي المعاصر

وهي ما اصطلح عليه في لغة السرد "بالحوار" الذي يتخلل سيرورة السرد، سواء تعلق الأمر بالحوارات اللغوية المباشرة الجارية على ألسنة الشخصيات، أم في شكل حوار داخلي (مونولوج).

وهو أي الحوار عنصر أساس من عناصر السرد، باعتباره نمطا من أنماط التعبير الفني داخل الرواية، إذ تنتظم من خلاله أحاديث الشخصيات، فتكون وظيفته تطوير الحدث والإبلاغ عنه والكشف عن طبيعة الشخصيات الاجتماعية أو المادية أو النفسية، وعن عواطفها وأحاسيسها المختلفة وشعورها الداخلي ورؤياها تجاه الأحداث والشخصيات الأخرى²²

ويسميه باختين بالتقابل الحوارية فيقول: "إنّ التّقابل الحوارية بين اللّغات الخالصة في الرواية - إضافة إلى التّهجين - وسيلة جبارة في إنشاء صورة اللّغة".²³، واضح أن باختين يولي أهمية كبيرة لهذه الحوارات، باعتبارها أداة في تكريس التعدد اللغوي، الذي تفرزه على اختلاف أنواعها من خلال صراع مجموع القوى الفاعلة ضمن حقل الرواية. "فالحوار علاقة تخاطبية بين الناس الذين يعيشون في المجتمع، إضافة إلى كونه ذو طابع صراعي، أو تناقضي، هذا الطابع هو نفسه طابع العلاقات الاجتماعية بين الناس، إنه طابع ممارستهم المادية، من حيث كونهم طبقات و فئات مجتمع، لهم مصالحهم وحاجاتهم، كما لهم رغباتهم وأحلامهم المختلفة، غير المتماثلة فيما بينهم، بل والمتفاوتة حيناً والمتناقضة حيناً آخر.²⁴

كما إننا بالحوارات "نكتشف حجم التباين واللاتجانس بين مجموع الشخصيات لأنه يكشف عن مستويات التفكير المختلفة، ويكشف عن جوانب التمايز بين الأصوات الروائية".²⁵

أقوال الشخصيات:

ويدخل ضمن إطار الحوارات الخالصة أقوال الشخصيات الروائية، المشكلة ضمن البناء السردية، والتي تطلعننا عبر فضاء الحوارات الخالصة (حوار/مونولوج) حيث تسهم في إثراء التعدد اللغوي وفق درجة توظيفها.

وعلى الرغم من التعارض الحاصل في جمهور النقاد حول مسألة استقلالية الشخصية، ومدى التعبير عن رؤيتها للعالم، "حيث يعرفها «رولان بارت» بأنها مجرد نتاج عمل تأليفي، كما يعتبرها الحميداني ملازمة لذاتها، أي أن حقيقتها لا تتمتع باستقلال كامل داخل النص الروائي"²⁶

غير أن استقلال الشخصيات الأدبية والدلالي ضمن الرواية يبقى متفاوتا، تبعا لقدرة كل مؤلف على التشخيص الأدبي. وفي هذا الصدد، يشير "باختين" إلى "أنّ هذه الاستقلالية والحرية للبطل تدخلان تماما في خطة المؤلف. إن هذه الخطة تبدو وكأنها تهيئ البطل مقدما للحرية النسبية طبعاً وتدخله، بالشكل الذي هو عليه، ضمن الخطة الصارمة المحسوبة للعمل بعامة".²⁷ إذ "أنّ ذاكرة الروائي تختزن العديد من اللغات (الأصوات) التي سمعها أو قرأها، وعند البدء بالكتابة يسترجعها، ويعيد كتابتها بصورة وبأسلوب جديدين، تبعا للسياق الذي تحكمه ظروف تاريخية وقصدية معينة. واختلاف هذه الظروف وتباين مقاصد الأصوات يخلق تواترا داخل النص"²⁸، يشعرنا بالتملص النسبي لشخص الرواية من خيوط الكاتب/السارد، فضلا على أنّه يفرض تجديدا وتنوعا على لغة النص الروائي، يجعل القارئ يعيش داخل الرواية وعوالمها المختلفة.

ومهما يكن فإن الشّخصية الروائية تستطيع بفعل أقوالها التي يتكشف عنها الحوار أن تؤثر على سياق الكاتب وتوجّهه. يقول باختين: "إنّ التعدد اللساني المدمج الذي يمثل خطاب الآخرين داخل لغة الآخرين يفيد في تفسير التعبير عن نوايا الكاتب، وهذا الخطاب يقدم التفرد في أن يكون ثنائي الصوت، إنّه يخدم بتأن متكلمين ويعبر عن نيتين مختلفتين: نية – مباشرة- هي نية الشخصية التي تتكلم ونية مكسرة- هي نية الكاتب." ²⁹ فأقوال الشخصيات تمارس تأثيراً على مستوى رؤية الكاتب، بفعل الحرية النسبية التي تتمتع بها، "فتنقل إلى خطابه كلمات غيرية خارقة بذلك نقاوة الشكل الروائي بفعل حركيتها وتفاعلها عبر الحاضر والماضي وعبر الحلم واليقظة... مما يثري النص بالتعدد اللغوي." ³⁰

وتتشكل أقوال الشخصيات من صيغ عديدة، فبالإضافة إلى خطاب الشخصيات المباشر عن طريق الحوار نعثر داخل خطاب الكاتب نفسه، وحول الشّخوص ضمن ما يسميه باختين "مناطقهم الخاصة" ما يمكن أن ندرجه ضمن أقوال الشخصيات كأنصاف- خطابات الشّخوص، ومختلف أشكال النّقل المستتر لكلام الآخرين، وملفوظات خطاب الآخر المبعثرة هنا وهناك، سواء كانت هامة أو غير هامة، ومن إلحاق عناصر تعبيرية بخطاب الكاتب تكون غير خاصة به (نقط التّعجب أو الاستفهام أو نقط الوقوف) هذه المنطقة هي شعاع الفعل بالنسبة لصوت الشّخصية مختلطاً، على نحو أو آخر بصوت الكاتب. ³¹

كما يذهب محمد بوعزة إلى أبعد من ذلك حين يقول: ارتأينا أن نطور شكل "أقوال الشّخصيات، بحيث لا يعود يقتصر على حوار الشّخصيات، بل يمتد ليشمل خطابات الحلم والهديان والاستفهام والتذكر والرؤى، وكافة أشكال التلّفظات والخطابات التي تضاعف من النّبرة الذاتية للكلام، هذه الخطابات تشكل في مجموعها ما نصلح على تسميته «بالخطاب الانفعالي» ويشمل كافة الخطابات التي تعبر الذات من خلالها عن نفسها. ³²

3. التنضيد اللغوي:

1.3- تنضيد اللّغة إلى أجناس:

تعتبر الرواية أكثر الأجناس الأدبية قابلية لاستقطاب باقي الأجناس، واحتوائها ضمن نسيجها اللغوي، مما يشكل أحد أهم مصادر إدخال التعدد اللغوي ضمن نسيجها اللغوي، "فقالها المفتوح ونزعتها الاستيعابية، تسمح لها أن تدخل إلى تركيبها جميع أشكال الأجناس التعبيرية، سواء أكانت تنتمي لسجلات أدبية (قصص، أشعار مسرح...) أم لسجلات غير أدبية (نصوص علمية، تاريخية، جغرافية...) وتحتفظ تلك الأجناس عادة بمرونتها الدلالية وأصالتها الأسلوبية، و تصبح عنصراً تكوينياً أساساً في بناء الرواية، وقد تمتد أكثر من ذلك حين تحدد شكل الرواية برمته، خالقة بذلك مغايرات ونماذج للشكل الروائي (رواية اعتراف، رواية مذكرات، رواية رسائل...) ³³

يقول باختين: "إنّ الأجناس التي تدخل الرواية يمكن أن تكون ذات قصدية مباشرة، كما يمكن أن تكون موضوعية شئئية بالكامل أي محرومة حرماناً تاماً من مقاصد المؤلف (أي أن الكلمة لا تقول هذه الأجناس، بل تعرضها فقط كأشياء)، إلّا أنّ هذه الأجناس تعكس في أكثر الأحيان مقاصد المؤلف بقدر أو

أشكال التعدد اللغوي وأثرها على التمثيز البوليفوني للخطاب الروائي المعاصر

بآخر.³⁴ حين تضطلع بوظيفة دلالية، فاقترابها لعالم الرواية يثري في الغالب خطاب هذه الأخيرة، ويحدّ من هيمنة المبدع، لتتراجع بذلك السيطرة الأحادية، رفقة الخطاب المباشر، تحت وطأة هذه الأجناس التي تعمل على تكسير السير الخطي للأحداث والأدوار، بإبعاد الرواية عن التمثية المعهود القائمة أساسا على السرد التقليدي، "كما أنها تسهم في لحمتها، ونموها وتضفي عليها شحنات دلالية تساعد على بلورة شعرية الخطاب"³⁵

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى دخول بعض الأشكال المشابهة ضمن دائرة الأجناس المتخللة كالحكم والأقوال المأثورة والعبارات المسكوكة إلى الرواية.

3.2- تنضيد اللّغة إلى مهن:

يقسّم باختين التنضيد اللغوي إلى شكلين: تنضيد اللّغة إلى أجناس وقد سبقت الإشارة إليه، "وتنضيد لغوي مهني (تنضيد اللّغة إلى مهن)، كأن نشير – مثلا- إلى لغة المحامي، ولغة الطبيب، ولغة السلطان، ولغة الفقيه، ولغة التاجر، ولغة السياسي، ولغة المعلم... الخ"³⁶ فالرواية بحكم طبيعتها الاستيعابية يمكنها أن تضمّن نسيجها اللغوي مختلف مستويات اللّغة، المتباينة تبعا لتباين الشّخصيات، فلكلّ لغته التي يستطيعها والتي ألفت التعبير بها عن أغراضه، ورؤيته للعالم من حوله، مما يجعل (الرواية) فضاء يعج بالاختلافات والمتناقضات على مستوى اللّغة والتّصور والقصد.

"غير أن ما يهم – في نظر باختين – هنا هو الجانب القصدي أي الدلالة الغيرية، وقصدية التنضيد، فليس تركيب اللّغة، أي النّحو والقواعد، أو ما يسمى في اللسانيات باللسان هو الذي يتنضد ويتباين، وإنما النّوايا والمقاصد والرؤى المضمنة في اللّغة هي التي تنتضد، وترتبط بأشياء معينة وبمنظورات تعبيرية متصلة بالأجناس والمهن داخل هذه المنظورات، ومن أجل المتكلمين أنفسهم، تكون لغات الأجناس ووظائف المهن قصدية وكاملة الدلالة."³⁷ فما يهم هنا هو هذه القصدية التي يتعمدها المتكلم داخل الرواية، فهو لا يستعمل لغة جنس من الأجناس أو لغة من اللغات الاجتماعية المتعلقة بطبقة ما اعتبارا أو طلبا للتنوع في المظهر الشكلي للرواية، بل للتعبير عن وعيه ورؤيته للعالم مما يمنح لغته لونا مغايرا للغة السرد حين يقحمها داخل لغة النسق العام، فتتعدد روافد اللغة الروائية، لذا فإنّ "المظهر اللغوي، الدلالي والتعبري. أي: القصدي، هو القوة التي تنضد وتنوع اللغة الأدبية."³⁸ وعليه فللتنضيد اللغوي أهمية بالغة في ادخال التعدد اللغوي إلى الرواية كونه يعبر عن التعدد الطبقي، والتنوع الهرمي الاجتماعي، فيكشف رؤى الشخصيات إلى العالم، ثم يبرز اختلافها فيما بينها اجتماعيا وطبقيا وإيديولوجيا.

4. خاتمة:

يلفظ البحث أنفاسه عند هذه العتبة مشيرا إلى أنّ محاولة باختين القائمة على تشریح لغة الرواية من خلال استعراضه لأهم الأشكال والتلوينات اللغوية التي يمكن للغة الرواية أن تقحمها ضمن معمارها اللغوي، لم يكن لمجرد اثبات كثافة وتعدد الروافد اللغوية التي تستطيع الرواية من خلالها تأنيث لغتها، بل يتعدى الأمر ذلك حيث يسعى باختين إلى اثبات بوليفونية الرواية من خلالها، فتعدد اللغات واللهجات دليل مادي على تعدد

الأصوات التي تسعى إلى التعبير عن ذاتها، فالرواية فضاء حر يسمح لجميع فئات المجتمع أن تسمع صوتها من خلاله، وأن تعبر عن وعيها للعالم من حولها بأي لغة تستطيعها، لذلك كان الخطاب الروائي معرضاً لطيفا لجميع لغات المجتمع ولهجاته، فصيحها وهجبتها وحتى العامي منها. إنها صخب صوتي منتظم، شبيه بانتظام أصوات الموسيقى على حد وصف باختين، يراوغ القارئ ويوهمه بموضوعية السرد في استعراض جميع الأيديولوجيات دونما تحيز، تاركاً له مجال حرية التخندق تحت أي لواء شاء.

6. هوامش البحث:

- 1 إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، مقارنة أسلوبية لزقاق المدق، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 2008م، ص: 408.
- 2 يقصد بالبوليفونية (Poliphonie/poliphony) تعدد الأصوات، وقد أخذ هذا المصطلح من عالم الموسيقى، ليتم نقله إلى حقل الأدب والنقد. ومن ثم، فالمقصود بالرواية البوليفونية تلك الرواية التي تتعدد فيها الشخصيات المتحاور، وتتعدد فيها وجهات النظر، وتختلف فيها الرؤى الإيديولوجية. بمعنى أنها رواية حوارية تعددية، تنحى المنحى الديمقراطي، حيث تتحرر بشكل من الأشكال من سلطة الراوي المطلق.
- 3 الرواية المنولوجية هي الرواية التي تتكى على تصور إيديولوجي أحادي وتشكيل سردي مبني على أحادية السارد المطلق العارف بكل شيء، وهيمنة السرد على الخطاب المعروض، وعدم تنوع اللغة، والاكتفاء بسجل لغوي واحد يتسم بالرتابة والتكرار والمعاودة والفرادة الأسلوبية.
- 4 إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، ص: 408، 409.
- 5 محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط: 01، 2012، ص: 25.
- 6 المرجع نفسه، ص: ن.
- 7 ينظر ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة 1987، ص: 102.
- 8 ينظر محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، ص: 26.
- 9 المرجع نفسه، ص: 27.
- 10 ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص: 120.
- 11 إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، ص: 409 و 41.
- 12 حميد لحميداني، أسلوبية الرواية (مدخل نظري) منشورات دراسات سمائية أدبية لسانية ط1، 1989، ص: 84.
- 13 نجاه عرب الشَّعبية، حوارية باختين، دراسة في المرجعيات والمفردات، مجلة التّواصل في اللّغات والثقافة والآداب، عدد 31، ديسمبر 2012، ص: 90.
- 14 ينظر حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، محمد بوعزة، ص: 28.
- 15 ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص: 122.
- 16 عبد الرّحمن بوعلي الرواية العربية الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، 2001، ص: 174.
- 17 ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988، ص: 149.
- 18 حميد لحميداني أسلوبية الرواية، ص: 88.

أشكال التعدد اللغوي وأثرها على التمثيل البوليفوني للخطاب الروائي المعاصر

- 19 المرجع نفسه، ص: نفسها .
- 20 محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، ص: 29 و30.
- 21 ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص: 123.
- 22 هيام شعبان، السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله، دار الكندي الأردن 2004، ط 01، ص: 213.
- 23 ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ص: 152.
- 24 يمني العيد، الزاوي الموقع الشكل، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1، 1986، ص: 22.
- 25 محمد نجيب التلاوي، وجهة النظر في روايات الأصوات العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000 ص: 59.
- 26 حميد الحميداني، بنية النص السرد، المركز الثقافي العربي، ط 01 1991 م، ص: 50.
- 27 ميخائيل باختين، شعرية دستوفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر المغرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 01 1986، ص: 20/19.
- 28 صبيحة أحمد علقم، تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية، الرواية الدرامية نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بيروت 2006، ط 01، ص: 42 و43.
- 29 ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص: 91.
- 30 ينظر حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، محمد بوعزة، ص: 33 و34.
- 31 إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، ص: 412 و413.
- 32 محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، ص: 34.
- 33 المرجع نفسه، ص: 32.
- 34 ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ص: 94.
- 35 لحسن كرومي، التعدد اللغوي في رواية سنونوات كابول، كتاب الرواية بين ضفتي المتوسط المجلس الأعلى للغة العربية ص: 53.
- 36 جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، موقع شبكة الألوكة، رابط: <http://www.alukah.net>
- 37 محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، التعدد اللغوي والبوليفونية، ص: 36.
- 38 جميل حمداوي، مستجدات النقد الروائي، موقع شبكة الألوكة، ط 01 2011 م، ص: 139.

قائمة المراجع:

1. إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، مقارنة أسلوبية لزقاق المدق، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط 01، 2008 م.
2. جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، موقع شبكة الألوكة، رابط: <http://www.alukah.net>
3. جميل حمداوي، مستجدات النقد الروائي، موقع شبكة الألوكة، ط 1، 2011 م.
4. حميد الحميداني، أسلوبية الرواية (مدخل نظري) منشورات دراسات سمبائية أدبية لسانية ط 1، 1989.
5. حميد الحميداني، بنية النص السرد، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991 م.
6. صبيحة أحمد علقم، تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية، الرواية الدرامية نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2006، ط 01.
7. عبد الرحمن بوعلي الرواية العربية الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، 2001.

-
8. لحسن كرومي، التّعدد اللّغوي في رواية سنونوات كابول، كتاب الرّواية بين ضفتي المتوسط المجلس الأعلى للغة العربية.
9. محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط: 01، 2012.
10. محمد نجيب التّلاوي، وجهة النّظر في روايات الأصوات العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000.
11. ميخائيل باختين، الخطاب الرّوائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة 1987.
12. ميخائيل باختين، الكلمة في الرّواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988.
13. ميخائيل باختين، شعرية دستوفسكي، ترجمة جميل نصيف التّكريتي، دار توبقال للنشر المغرب، دار الشّؤون الثقافية العامة بغداد، ط 01 1986.
14. نجاة عرب الشّعبة، حوارية باختين، دراسة في المرجعيات والمفردات، مجلة التّواصل في اللّغات والثقافة والآداب، عدد 31 ديسمبر 2012.
15. هيام شعبان، السّرد الرّوائي في أعمال إبراهيم نصر الله، دار الكندي الأردن 2004، ط 01.
16. يمني العيد، الرّاوي الموقع الشّكل، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1، 1986.